

سورية: استثناء تآكل المعارضة المسلحة

■ **حميدي العبدالله**

تصاعدت في الأيام القليلة الماضية الصراعات في صفوف المعارضة المسلحة، وسُجّلت في الأيام القليلة الماضية تطوّرات مهمة أبرزها اعتقال «جبهة النصرة» في محافظة درعا «قائد المجلس العسكري» أحمد النعمة، بعد ساعات من إعلان النعمة تشكيل «جبهة ثوار جنوب سورية» على غرار التشكيل الذي يقوده عبد معروف في محافظة إدلب ويرتبط وثيقًا بالاستخبارات الأميركية والانتقال المعارض، كما اعتُقل عدد من قيادات «المجلس العسكري» الذين كانوا برفقته. وبعد مرور أقل من يومين اغتيل مسؤول «جبهة النصرة» في مدينة بصرى، وقُبل ساعات أيضًا اغتيل عدنان خبية أحد أبرز قادة الجماعات المسلحة في مدينة دوما والغوطة الشرقية. وتشير هذه الاغتيالات والتهديدات المتبادلة بين الجماعات المسلحة المتنافسة والمتصارعة إلى امتداد المواجهة بين هذه الجماعات إلى المنطقة الجنوبية والغوطة الشرقية، بعدما كانت هذه الواجهات محصورة في محافظات إدلب وحلب والرقية والحسكة ودير الزور. كما تشير هذه الاغتيالات والاعتقالات إلى اقتراب بدء موجة عنيفة من المواجهات المسلحة في المنطقة الجنوبية والغوطة الشرقية بين الجماعات المتنافسة، وما يجعل مثل هذا الاحتمال أمراً مرجحاً ثلاثة عوامل أساسية:

العامل الأول، الاتهامات التي وجهتها «جبهة النصرة» إلى رئيس «المجلس العسكري» في درعا ومعاونه الذي عاد لتوّه من الأردن، إذ اتهمته بأنه مشروع «صحوات» في هذه المنطقة، وهي الاتهامات ذاتها التي وجهها تنظيم «داعش» إلى «جبهة النصرة» و«الجيش الحر» والفصائل المنضوية تحت راية «الجبهة الإسلامية».

العامل الثاني، الاتهامات التي أشارت إلى أنّ اغتيال عدنان خبية هو نتيجة «خرق أحدّه النظام في صفوفنا» مثلما ورد على لسان أحد قادة الجماعات المسلحة في مدينة دوما، والاتهامات التي وجهتها النصرة إلى «رئيس المجلس العسكري» في درعا بأنه يعمل «لمصلحة النظام السوري».

العامل الثالث، القناعة لدى «جبهة النصرة» بأنّ الأردن، نياية عن الولايات المتحدة وحلفائها، هو الذي يقف وراء دعم بعض الجماعات المسلحة «على حساب جماعات أخرى»، إذ نسب إلى «مصدر مقرب من النصرة» قوله «إنّ المؤشرات ازدادت في الأيام الفائتة على وجود نيّة لدى المجلس العسكري بقيادة الخائن أحمد النعمة

■ **فؤاد عيتاني**

الحديث عن السلفية في السعودية بالغ التعقيد ومتشعب، فالمقاربة تحليلية لعنصر من عناصرها ما هي إلا محاولة منا لتقديم وجهة نظر شمولية، تعريفاً بخطوطها العريضة الأولى، وما آلت إليه في اللحظة الراهنة. والبدائية ستكون مع عنصر من أهم عناصرها، المعارضة المنبثقة من رحم السلفية، ونعني ما يُسمى بالصوحة الإسلامية في السعودية خاصة، والتيار السلفي في العالم عامة.

إنّ تناول المعارضة السلفيّة سيكون أشمل من تناول السلفية بشكل تقليدي، فالمقاربة الأولى تعني السلفية من الداخل كما من الخارج، بحكم أنّ معارضة الشيء تبدأ بتفكيك قواعد تكوينه، مع الحفاظ على

النشأة والتكوين

عام 1744 توجّ الملك محمد بن سعود والشيخ الديني أو الروحي محمد بن عبد الوهاب تحالفهما العسكري الديني على أساس تكوين ميدان للسلطة. وتمّ تقسيم هذا الميدان بين مجالين، السياسي تحت قيادة ابن سعود، والديني تحت إشراف محمد ابن عبد الوهاب. وبهذا استطاع الرجلان إنشاء تحالف قوي قامت عليه الدولة السعودية الأولى، واستمر هذا التحالف في إمداد الدولتين اللاحقتين، السعودية الثانية والسعودية الثالثة، بمصدر شرعية بالغ الخطورة والأهمية، ألا وهو الدين.

بالتركيز على نقطة مهمة، هذا التحالف هو أول تحالف يكون التيار المقاتل للمسلمين على اعتبارات دينية سببا في ميلاد دولة ملكية. في السابق البعيد رأينا مع معاوية بن أبي سفيان ميلاد الملك، ومع الخوارج قتال المسلمين، لكننا المرة الأولى يجتمع قتال المسلمين مع الملك الوراثي ثم مع آل سعود.

الإيديولوجيا

يلاحظ الكثير من الباحثين، قام فكر ابن عبد الوهاب على ما يُسمّى بمناهج السلف الصالح، والمقصود بذلك الرجوع إلى مصادر التشريع الأصلية، أي القرآن والسنة. ولم يكن عبد الوهاب منقطعاً عن معاصريه مننهجا وممارسة، مثلما هي الصورة الشائعة عنه، بل كان معلّما على المدارس الفكرية الرئيسية وتوجهات علماء عصره.

هذه الفكرة وتعذّد التفسيرات لإثر محمد بن عبد الوهاب، وهو حدّ ذاته دليل على مرونة فكره وقابليته للتكيف مع أكثر من اتجاه. غير أنّ الرجوع إلى منهج السلف الصالح، بحسب فكر عبد الوهاب، يعني جعل الاجتهاد مركزاً رئيسياً في الفقه، وذلك ما نراه جلياً في أهم كتابات هذا العالم، ألا سيما مؤلّفه المشهور كتاب التوحيد. وبناء على هذه الفكرة يصعب التقليد مرفوضاً، ولهذا التوجه انعكاسات خطيرة، سنتتبع بعضها في الآتي وعلينا ملاحظة نقطتين في هذا المقام:

الأولى، رفض التقليد عبر مركزية الاجتهاد. ومرّد ذلك أنّ الاجتهاد حقّ لكل مسلم يمارسه من دون وصاية من أحد. وبالتالي، وهذا ثانياً، فإنّ المساحة التي تفصل عالم الدين عن المجتمع تصبح قصيرة جداً، ما يقبّد احتكار الدين، أو ممارسة الكهنوتية، وفتح الفضاء العام للتعددية الفكرية في الدين، من دون الإخلال بالخطوط العريضة بالتاكيد.

غير أنّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عبر سعيه إلى التفرّغ لأمور العقيدة، أهمل الاجتهاد وفصل اتباع فتاوى بعض الذين سبقوه، متبنيًا المدرسة «الحنبلية» نسبة إلى الإمام أحمد ابن حنبل في المجل. وفي هذا تناقض واضح بين دعوته إلى الاجتهاد وتقليده المدرسة الحنبلية. ولا نستطيع أن نحذد الأسباب التي جعلته ينحو إلى ذلك، لكن من المهم استحضار السياق السياسي لتكوين الدولة السعودية الأولى، وهو التوسع والسيطرة على أراض جديدة. ولعل ذلك قد جعل التركيز ينصب على تعليم العقيدة أكثر من الفقه، بحكم دخول أعداد غفيرة في دعوته.

التطوّر

كأيّ فكر في أيّ مكان، تطوّر هذا المنهج الذي أصبح يُعرف بالوهابية،

ذلك المزيج من الاجتهاد النظري والتقليد العملي «الحنبلي».

ومن المراحل المهمة التي مرّ بها بروز تيارين رئيسيين هما التيار الإقصائي والتيار الاحتوائي. ومن الأمثلة على ذلك موقف العلماء

البناء

الديكتاتورية الأميركية في تراخ أممي

■ **ناصر بلکم**

التتين جلبتهما إليه أميركا وحلفاؤها وهم يتبادلون الأدوار في «الربيع العربي»، تارة بتسليح المعارضة السورية وتارة أخرى بإيقاف التسليح والإمداد بحجة وجود إرهابيين في صفوف «الجيش الحر»، ورافة بالشعب السوري كما جاء على لسان أوباما «إننا نشجع الشعوب للانتصار على حكامها المستبدين»، وما وزير خارجيته يسعى إلى تسليح المعارضة والبيت الأبيض يقر ويدعو إلى دعمه، والنظر في استخدام النظام للأسلحة الكيميائية قائم لتفويض المصالحة السياسية، والإبقاء على الحرب قائم لإحلاق الجيش السوري والشعب السوري بواقع العراق، وليبيا التي أجمع «المثلث البرمودي» على ضربها من الجو وإنهاء بنيتها العسكرية والتحتية، في مقابل استنزاف المشتقات النفطية.

وفي الحالتين السورية والليبية أظهرت المنظمات

الإممية الحقوقية والقانونية تراجعا في الموقف، ولم

تتمكن من إيقاف نزيف الدم والتدخل «البرمودي»

قالت الحكيمه الهندية أنديرا غاندي:

إذا احتكمت دولة صغيرة ودولة كبيرة

إلى منظمة الأمم المتحدة ضاعت الدولة

الصغيرة، وإذا احتكمت دولتان كبيرتان

إلى الأمم المتحدة ضاعت الأمم المتحدة

الذي يصدر «الديمقراطية والحرية» والإرهاب في آن واحد، فالأولى إن نجحت سمحت بالتدخل «البرمودي» في السياسة والشراكة النفطية، والإا كانت الثانية حاضرة في عدم أمن واستقرار الدولة المستهدفة وإذا لم تنتج كانت الثانية حاضرة في الفوضى الخلاقة، ثم التدرج بإعطاء الضوء الأخضر للخلايا النائمة كي تستخدم السلاح والعمليات الإرهابية. الأزمات السورية والعراقية والليبية خير دليل عن الاستراتيجية «البرمودية» التي بدأت تظهر في الأزمة المصرية. تحرك أوروبي بعيد عن الشرعية الانتخابية في اقتراحاته ويتقاطع مع المشروع الأميركي بدعم خيارات الشعب والشعب منقسم. إذن المشروع الأميركي ـ الأوروبي يعزّز الانقسام، أما الموقف الأممي فهو في غيوبة تامة ولحقت به «الجامعة العربية»، ما يطلق الاستراتيجية «البرمودية» في مصر لتسير نحو ما سارت إليه

السلفية بين تيارين ... ساطوي مستكين وعنفي تكفيري (1)

المهم في مراكز «تعبوية» خطيرة كأساتذة جامعات وأطباء ومهندسين، كان له بالغ الأثر. وبالإضافة إلى ذلك، حصل تواصل فكري ديني بين جبل من شباب الوهابية ومفاهيم تركية «إخوانية». وفي هذا توفير لبديل خبير لمفهوم ولي الأمر التقليدي. التأثير بالفكر «الإخواني» الحركي انعكس على مفهوم ولي الأمر كثيرًا، إلى حدّ إدراج شروط متعدّدة، إذا لم يتمّ احترامها تسقط شرعية الحاكم، ويستتبع ذلك جواز الخروج عليه.

لكن تحديد تلك الشروط ومراقبة احترامها ومن ثم تقرير ما يلزم تجاه الخروج أو عدم الخروج على الحاكم، يبقى كله منوطاً بأهل الحل والعقد. ومفهوم أهل الحل والعقد يعني تقسيم المسلمين قسمين، قسمًا تابعًا وقسمًا متبوعًا. وإملاك صلاحية تحديد أفراد كلّ قسم ينحصر في رجال الدين نظريًا، لكنه يخضع عمليًا لشروط اجتماعية كثيرة ومعقّدة. والمهم في ذلك كله إمكان تحوير هذا المفهوم ليصبح أكثر انفتاحًا على الجميع بما يمهد لتقليل احتكار نخبة معينة للسلطة. وحصل ذلك مع تيارات متعدّدة انبثقت عن السلفية، مثل «الصحوّة» التي شكّلت في فترة ما معارضة قوية للمجالين الرئيسيين في ميدان السلطة، المجال السياسي والمجال الديني.

يلي ذلك مفهوم الولاء والبراء، وهو مفهوم يعني، بحسب وجهة النظر الوهابية، حرمة موالاة الكفار. ونظر لهذا المفهوم محمد بن سعيد القحطاني في كتابه «الولاء والبراء في الإسلام». وساعد هذا الكتاب في إعادة الزخم للتوجه الأحادي في الوهابية، أي الرأي الأوحد الإصطائي. ولهذه الفكرة أثر بالغ الأهمية؛ إذ إنّ النظام السياسي الدولي يفرض على المملكة العربية السعودية، بحكم مركزية النفط في اقتصادها الإرتباط بالاقتصاد العالمي والانفتاح عليه.

هذا أمر يمكن تفهّمه إذا نظرنا لكون المملكة تحتاج إلى من يشتري نفطها، وهذا يعني بإطبع الولاء المتقدّمة والمتطورة صناعيًا. وهنا مازّق آخر على السعودية التعامل معه، مصالحة موقعها الإسلامي المحوري وخطاب شرعيّتها المستند إلى الكتاب والسنة وتحالفاتها مع العالم الغربي الذي لا يدين بالإسلام.

وكلّما صغفت بالملكة أزمة، أبدأ تكن، اجتماعية أو اقتصادية أو غير ذلك، عبّرت تلك الأزمة عن وجودها من خلال المآزقين الكبيرين، مصالحة الأصالة والمعاصرة، والجمع بين موقعها كبذل للرحمين وحليف رئيسي للغرب. ونستدل على ذلك بعدة أمثلة، مثل الحرب

مرّت السعودية بتحديات أهمّها ترسيخ

شرعيّتها وإنهاء الصراعات داخل العائلة

الحاكمة على العرش ما اضطرها إلى

الاستعانة بالمؤسسة الدينية لإضفاء

الشرعية على الترتيبات الجديدة

الأهلية التي حصلت بين الملك عبدالعزيز و«الإخوان» في أواخر عشرينات القرن المنصرم.

كان لقادة «الإخوان» الذين يمكن أن نطلق عليهم مُسمّى النخبة القبلية بحكم قيادة شيوخ قبائل مطير وعتبية لهذه القوة العسكرية الضاربة طموحات سياسية، مثل اقتسام السلطة مع الملك عبدالعزيز، إنمّا قاموا بالتعبير عن احتجاجهم على احتكار الملك عبدالعزيز للسلطة من خلال مفاهيم دينية، مثل الولاء والبراء. وكان أهمّ ماخذ لهم مهادنة الكفّار وموالاّتهم ومنع الجهاد ضدّهم وكانوا يقصدون الجرح والارءن وبريطانيا. انتصر للملك عبدالعزيز لكن المفهوم بقي حيا.

من الأمثلة أيضا احتلال جيميّان العتبيي واصحابه للحرم المكي الشريف، وحاولا قلب الحكم على أسرة آل سعود. وبرى أنّ التغيرات الاجتماعية الهائلة كانت أحد العوامل التي ساهمت في بروز حركات مثل حركة جيميّان. فمنازق مصالحة الحداثة مع التاريخ الإسلامي والاجتماعي في السعودية، أي الأصالة والمعاصرة، تسبّب بالتأثير في السلم الاجتماعي. غير أنّ أحد الأساليب التي اتبعتها الحكومة السعودية للتعامل مع هذين المآزقين مصالحة الأصالة والمعاصرة ومازّق الولاء

أراء

الأمور في سورية وليبيا تحقّقيا للمآرب الصهيونية

بالحاق الجيش المصري برفاقه الثلاثة العراقي والسوري واليبيي. اللعبة «البرمودية» وجدت صدا سورية في قبل دولة روسيا المتمسكة بالشرعية الدولية وعدم إسقاط الأنظمة بالقوة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول. هذا الإعجاز الروسي المثلث «البرمودي» جعل الأخير يخلق أزمة في دولة

مصر لإيقاع الساسة الروسيين في فخ حرقهم عن الدفاع عن الشرعية وإظهارهم في ازدواجية المواقف السياسية، لكن الساسة الروسيين أكثر تعقلا ونكأء

من الوقوع في الفخ الغربي، فالشرعية هي المبدأ السامى والطول التي توصل لتفادي الحرب الأهلية، إما الاستفتاء أو بالدعوة إلى الانتخابات الباكرة، لإحراق المخطط البرمودي القاضي بإلحاق مصر بسورية وحرق الديكتاتورية الليبية وأدوارها المتبادلة مع بريطانيا وفرنسا، دولتي الاستعمار القديم. الحديث يؤكد رئيس الوزراء البريطاني بقوله إن الحكومة السورية الآن أقوى من ذي قبل، فأجابته على الفور رئيس لجنة الاستخبارات الأميركية بقوله على الرئيس السورية «أوباما تسليح المعارضة السورية. والقول أممي يسمح في حال مناجاة الكبار، علما أن سورية عضو فاعل في الأمم المتحدة، لكن صدقت الحكيمه الهندية: الاستبداد الصهيو ـ أميركي يبدو أكثر وضوحا في المعتقلات السياسية التي اتخذتها لتأديب الذين يهدون أمنها القومي ومصالحها في العالم

بحسب زعمها. امرأة الاستخبارات سوزان تقول إن الحكومة الأميركية عام 2001 أخذت قانون الاتحاد السوفياتي للأمن القومي المعمول به عام 1929 في السوفيات. وعمدت أميركا إلى تطبيقه، وعندما اعتقلت خضعت في محاكمة لمواده التي لا تأخذ بالإثبات بل تواجه المتهم بالجرمثم ثم تحكّم عليه.

وعقّلت غوانتانامو يؤكّد الديكتاتورية الأميركية ويعطي اللاصديقية للديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان الأجندة الهتلرية لامتلاك الأنظمة الحاكمة وإركاك الممانع منها بالإرهاب الدولي المجرّب والناتج في عزعّة أمر الاستقرار الأنظمة المعادية لسياسة الصهيوأمريكية. يبقى التراخي الأممي في ما تفعله أميركا في غوانتانامو بالمعتقلين والطائرات من دون طيار في بلدان العالم، والأجندة الإرهابية في «الربيع العربي» بشرعنة أميركية متلرية بعيدة تماما عن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان..

والبراء. كان احتواء المؤسسة الدينية عبر تأطيرها وتعميق تبعيتها للسلطة السياسية، وظهرت على السطح مؤسسات مثل مؤسسة هيئة كبار العلماء.

فضلا عن ذلك، أرسلت الدولة أعدادا كبيرة من الشباب إلى الخارج لاكتساب المعارف والعلوم الحديثة، لكنهم لم يحملوا لدى عودتهم تلك العلوم فحسب، بل أفكارا وتوجهات ذات أبعاد اجتماعية، فشكّلت هذه الأجيال المتعاقبة أرضية لنخبة ثقافية استقلت بمجالها الخاص عن ميدان السلطة. وليس أدلّ على ذلك من بروز حركات الحداثة الأدبية التي حصلت في منتصف الثمانينات، والتي تمتعت بإطار نظريّ متقدم وإنتاج نقدي وأدبي ثري. وأبرزت هذه التغيرات مجتمعة تيارات متعدّدة داخل السلفية الوهابية السعودية، كرد فعل على تلك المتغيرات.

التيارات السلفية وعلاقتها بالسلطة

نكتفي بالحديث عن طرفين رئيسيين يعارضهما التيار الصحوي هما السلفية المتصلبة والجامية. إنمّا علينا تعريف هذا التيار الصحوي وتحرير بعض مصطلحاته. طغى الجو الإسلامي الحركي، أو الإسلام السياسي، على الساحة الإقليميّة.

ويبرز الإسلاميون في كلّ من فلسطين وسورية ومصر وإيران. وشكّلت فترة ما أطلق عليّة الجهاد الأفغاني مرحلة مفصلية في تاريخ السلفية السعودية. اشتدّ عود هذا التيار عبر مواجهتين:

الأولى داخلية والثانية خارجية: الهدف الرئيس للحداثة الأدبية هو مسح الهوية الإسلامية للمجتمع السعودي. شنّوا معركة ضارية، واضطرت جامعة أمّ القرى، على سبيل المثال، إلى الامتناع عن منح سعيد السريحي وهو ناقد أدبي حدائثي معروف، شهادة الدكتوراه. واضطرت أيضا عبدالله الغزامي، مؤلف كتاب «الخطية والتكفير»، إلى ترك جامعة الملك عبدالعزيز في جدة والانتقال إلى الرياض. وحاولت السلطة الحفاظ على توازن معيّن بين الفريقين، كي لا يفني أحدهما الآخر، ربما لموازنة أحدهما بالأخر فلا تخلو الساحة لأحدهما فيشكل مصدر إزعاج للسلطة. أمّا العدو الخارجي فكان ما يطلق عليه الاتحاد السوفياتي والذي غزا أفغانستان. فكان لا بد من إعلان الجهاد عليه «ودحر عدوانه». ووافق ذلك هوى الحكومة السعودية التي كانت ترى في وصول الجيش الأحمر لأفغانستان مقدّمة لغزو الخليج، ودعم القوى اليسارية العربية، على حساب المكليات والأنظمة المحافظة.

لقد ذلك ترحيبا غربيا عامة، وأميركيا خاصة، لتوجس الغرب من الاتحاد السوفياتي وطموحاته التوسعية في الخليج العربي بحسب ما صوره الغرب وكزّسه في عقول رموز الحركة الوهابية والعائلة المالكة. وكانت محصلة ذلك تبني الحكومة السعودية الجهاد في أفغانستان عبر الدعم المادي والمعنوي، فقامت حملات التعبئة في المملكة، على مستوى المال والرجال، وكانت مقدمات لبروز تنظيم «القاعدة» من رحم الحركة الوهابية ومن رحم جماعة «الإخوان المسلمين» في العالم. وبعدها سحب الجيش السوفياتي قوّاته من أفغانستان، عاد معظمهم إلى بلدانهم وبينها السعودية، ما أدى إلى نشوء ظاهرة جديدة كان لها بالغ الأثر في ما تلا من الأيام، ألا وهي ظاهرة البطالة التكفيرية، التي أطلق عليها زورا وبهتانا الجهادية، وتشبه إلى حدّ كبير الغزوات في عهد الجاهلية القديمة التي ما أن تنتهي حتى يطالب قادة الجاهلية بالتخصير لغزوات جديدة تمكنهم من السرقة والاستيلاء على مغانم جديدة. وبعدهم من أفغانستان، إثر اكتساب مهارات قتالية وتنظيمية كبيرة على يد خبراء عسكريين من أميركا الذين أشرّفوا على إعداد تنظيم «القاعدة» تحت مُسمّى أنهم مجاهدون في سبيل الدين والعقيدة ومحاربة الفكر الشيوعي في بلاد المسلمين. عانى هؤلاء المقاتلون الكفريون السابوقون من غياب «المعركة الكبرى»، فحصل نوع مما يمكن أن يطلق عليه «البطالة الجهادية»، فلم يبق رغد العيش والصالات المكيفة تتعرضهم عن همامات الجبال في تورا بورا أو بطون الأودية الأفغانية المليئة بزراعة المخدرات الذي تعاطها قسم كبير منهم، وهذا ما يظهر حاليا في أمراض قاداتهم. استطاع هؤلاء العالدون أن يستثمرم خبراتهم التنظيمية لاستكمال مسيرتهم في خدمة مشروع تنظيم القاعدة، ولم يكن ينقصهم إلا سبب، أو مثير، لبتم التحرك وتفعيل دور تلك البنية التحتية التعبوية. ومع غزو العراق للكويت، واضطرار السعودية إلى الاستنجاد بالغرب، توافر السبب وحانت الفرصة، فبدأت التعبئة ضدّ «الغزاة الأميركيان» في أرض «الرحمين».

(يتبع جزء ثانٍ غدًا)